قالَ الْمُصَنِّفُ –رَحِمَهُ اللهُ– : [١٩٢ – عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((تَسَحَّرُوا ؛ فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً))].

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على خير خلق الله أجمعين ، وعلى آله وصحبه ، ومن سار على نهجه ، واهتدى بهديه إلى يوم الدِّين ، أمَّا بعدُ :

فقد ذكر الْمُصَنِّفُ –رَحِمَهُ اللهُ– حديثَ أنسِ بنِ مالكٍ –ﷺ وَأَرْضَاهُ– أنَّ النَّبِيَّ –ﷺ– قالَ : ((**تَسَحَّرُوا ؛ فَإِنَّ فِي السَّحُورِ**)) ، وفي روايةٍ أُخرى : ((**ففي السَّحُورِ بَرَكَةً**)) .

اشتملَ هذا الحديث على **أمرِ النَّبِيِّ** –ﷺ– **بالسَّحورِ** ، وفي هذا سنةٌ نبويةٌ للصَّائم ، سواءً كانَ في صيامِ فرضٍ أو نافلةٍ ، فنظرًا لاشتمالِ هذا الحديثِ الشَّريفِ على هذه السُّنَّةِ ، ناسبَ أنْ يعتنيَ الْمُصَنِّفُ –رَحِمَهُ اللهُ– بإيرادِهِ في كتابِ الصِّيَامِ .

قولُهُ –عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ– : ((**تَسَحَّرُوا**)) مأخوذٌ من السَّحرِ ، والسَّحرُ هو آخرُ اللَّيلِ ، وقالَ بعضُ العلماءِ : إنَّ السَّحَرَ هو السُّدُسُ الأخيرُ من اللَّيلِ ، أي نصفَ الثُّلُثِ الأخيرِ من اللَّيلِ قبلَ الفجرِ .

وهذا الوقتُ هو وقتُ فضيلةٍ ، فضَّلَهُ اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– على سائرِ أوقاتِ اللَّيلِ ، ولذلك أثنى –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– على الْمُستغفرين بالأسحارِ ؛ لأنَّ النَّاسَ في مثلِهِ يكونونَ في ضجعةِ النَّومِ ، وهدأةِ النَّومِ فلا يَذْكُرُ اللهَ –جَلَّ جَلَالُهُ– في مثلِ هذا الوقتِ إلا مَنْ أحيا اللهُ قلبَهُ بالطَّاعةِ ، وعَمَرَهُ بتقواه –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–

وقولُهُ –عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ– : ((**تَسَحَّرُوا**)) أمرٌ ، وأجمعَ العلماءُ –رَحِمَهُمُ اللهُ– على أنَّ هذا الأمرَ ليسَ على ظاهرِهِ ، ولذلك لا يجبُ على الصَّائمِ أنْ يتسحَّرَ .

قالَ القاضي عياضٌ : أجمعوا على ندبِ السَّحورِ ، أي أنَّ الأفضلَ والأكملَ أنْ يأكلَ الإنسانُ أكلةَ السَّحرِ ، ولا يجبُ عليه ذلك ولو تَرَكَهُ مع القُدرةِ ، ولذلك وَاصَلَ النَّبِيُّ –ﷺ– الصِّيَامَ ولا وِصَالَ إلا بتركِ السَّحورِ .

وكذلك قالَ العلماءُ : إنَّ السَّحورَ وأكلةَ السَّحرِ تُعِيْنُ الصَّائمِ على الصَّوْمِ ، وليسَتْ هي بحقيقةِ الصَّوْمِ حتى تكونَ رُكنًا أو شَرطًا أو أمرًا لازمًا واجبًا فيه .

وقولُهُ –عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ– : ((**تَسَحَّرُوا**)) أمرٌ منه –عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ– على سبيلِ النَّدبِ والاستحبابِ لأكلةِ السَّحرِ .

وأكلةُ السَّحرِ فيها خيرٌ كثيرٌ ، ولذلك أَمَرَ بها النَّبِيُّ -ﷺ- ، وبَيَّنَ أنَّ فيها بركةً لأُمَّتِهِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- .

وقولُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- : ((**فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةٌ**)) بمثابةِ التَّعليلِ ، أي أمرتُكُم يا معشرَ الأُمَّةِ بأكلةِ السَّحرِ ؛ لِمَا فيها من البركةِ ، وما أَمَرَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- بأمرٍ إلا جعلَ اللهُ فيه للعباد خيرَ الدِّينِ والدُّنيا والآخرةِ ، فما من بابِ خيرٍ إلا دلَّنا عليه ، ولا سبيلِ رُشدٍ ورحمةٍ إلا هدانا إليه بإذنِ اللهِ تَعَالَى -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ- .

وقولُهُ : ((**فَإِنَّ فِي السَّحُورِ**)) السَّحُورُ بالفتحِ : هو الشَّيءُ الذي يتسحَّرُ به الإنسانُ من الْمَأكولِ ونحوِهِ .

والسُّحُورُ بالضَّمِّ : هو الفِعلُ ، كالوُضُوءِ والوَضُوءِ ، وكذلك السَّعُوطِ والسُّعُوطِ ، والوَجُورِ والوُجُورِ ، والطَّهُورِ والطُّهُورِ ، يختلفُ فيه الفتحُ والضَّمُّ ، فالفتحُ يكونُ للشَّيءِ الْمَفعولِ به ، والضَّمُّ يكونُ للفعلِ نفسِهِ .

قولُهُ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- : ((**فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةٌ**)) فيه دليلٌ على فضلِ أكلةِ السَّحرِ **ومن بركاتِهَا وأعظمِ بركاتِهَا** : اتِّباعُ النَّبِيِّ -ﷺ- والتزامُ هديهِ ، فالخيرُ كُلُّ الخيرِ في اتباعِهِ ، والهدايةُ والرَّحمةُ في السَّيْرِ على نهجِهِ ، والاقتفاءِ لأثرِهِ ، وما من مُسلمٍ يحرصُ على سُنَّتِهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- وعلى هديِهِ إلا باركَ اللهُ له في عُمرِهِ وقولِهِ وفعلِهِ ، على قَدْرِ ما يكونُ من طاعتِهِ والتزامِهِ بسُنَّةِ نَبِيِّهِ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- .

ومن بركةِ السَّحُورِ : أنَّ الصَّائمَ يتقوَّى به على الصِّيَامِ ، فإنَّ الصِّيَامَ يُجهِدُ الإنسانَ ويُضعِفُ قوتَهُ ، فإذا أَكَلَ في السَّحَرِ فإنَّه يصبحُ قويَ النَّفسِ ، مستجمَّ الرُّوحِ ، يستطيعُ أنْ يقومَ بأعبائِهِ وأنْ يقضيَ مشاغلَهُ ، وأنْ يقضيَ وَطَرَهُ من أُمورِ الدِّينِ والدُّنيا دُونَ عناءٍ ولا مشقةٍ .

وفي هذا رحمةٌ بالإنسانِ ، وفي هذا رحمةٌ بالْمُكلفِ وتيسيرٌ له ، بخلافِ ما إذا كانَ الصِّيَامُ قد أجهدَهُ ، فإنَّه رُبَّمَا عطَّلَهُ عن أمرٍ من مصالحِهِ الْمُهمةِ ، ولرُبَّمَا عطَّلَهُ عن طاعةٍ من الفرائضِ فلم يستطعِ الخُروجَ إلى الجماعةِ ، ولم يستطعْ شُهُودَ الصَّلاةِ ؛ بسببِ ضعفِهِ والجهدِ الذي لَحِقَهُ في بدنِهِ .

فمن بركةِ السَّحُورِ كما أخبرَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- : ((**فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةٌ**)) من بركتِهِ أنَّه يقوِّي العبدَ على الطَّاعةِ من هذا الوجهِ .

كذلك من بركةِ السَّحُورِ : أنَّه فَصْلُ ما بينَنَا وبينِ أهلِ الكتابِ من اليهودِ والنَّصارى ، فقد كانَ

في شريعتِهم إذا صامَ الصَّائمُ ثم أفطرَ في الْمَغربِ ، فإنَّه إذا نامَ حَرُمَ عليه الأكلُ والشُّربُ إلى اليومِ الثَّاني .

وكانَ هذا في أوَّلِ الإسلامِ ، فكانَ الرُّجُلُ إذا أفطرَ بعدَ غُرُوبِ الشَّمسِ يُبَاحُ لهُ الأكلُ والشُّربُ والجِماعُ ما لم يَنَمْ ، فإذا نامَ حَرُمَ عليهِ الأكلُ والشُّربُ والجِماعُ إلى اليومِ الثَّاني ، حتى خفَّفَ اللهُ عن هذه الأُمَّةِ ، ووَضَعَ عنها الإِصْرَ ، ويَسَّرَ لها ورَحِمَهَا ، فجعلَ لها اللَّيلَ للأكلِ والشُّربِ إلى طُلُوعِ الفجرِ وانبلاجِ ضيائِهِ .

وقولُهُ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- : ((**فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةٌ**)) البركةُ : الخيرُ والزِّيادةُ في الشَّيءِ والشَّيءُ إذا وَضَعَ اللهُ فيه البركةَ كانَ قليلُهُ كثيرًا ، ويسيرُهُ عظيمًا ، فكَمْ من شيءٍ قليلٍ جعلَهُ اللهُ كثيرًا بالبركةِ .

وهي -أي البركةَ- لا تكونُ بالتَّشهيّ ولا بالتَّمنيّ ، ولكنَّها من اللهِ -جَلَّ جَلَالُهُ- ، فهو الذي يضعُ البركةَ حيثُ شاءَ ، ومتى شاءَ ، وكيفَ شاءَ ، لا يُسألُ عمَّا يفعلُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- ، وهو الحكيمُ العليمُ الحكيمُ في تدبيرِهِ وأمرِهِ ونهيِهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- ، العليمُ بخلقِهِ .

فالبركةُ : الخيرُ والنَّماءُ في الشَّيءِ ، وإذا أرادَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- أنْ يمحقَ البركةَ من شيءٍ فإنَّه يصبحُ ذلكَ الشَّيءُ كأنْ لم يكُنْ ، فكَمْ من أموالٍ مُحِقَتْ بركتُهَا فلَمْ ينتفعْ بها أهلُهَا -نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالْعَافِيَةَ- .

فتُمحقُ البركةُ من الأعمارِ ، وتُمحقُ البركةُ من الأوقاتِ ، وتُمحقُ البركةُ من الأموالِ ، وتُمحقُ البركةُ من الأولادِ ، فإذا أرادَ اللهُ أنْ يُبارِكَ للإنسانِ في كُلِّ شيءٍ وَجَدَ الخيرَ في كُلِّ شيءٍ ، ولذلك تجدُ النَّاسَ منهم مَنْ يُعَمِّرُ عُمُرًا قليلاً ، ولكنَّ اللهَ يضعُ لهُ البركةَ فيه ، فيقومُ بأعمالٍ عظيمةٍ ، وينجزُ أُمورًا جليلةً ، قد لا يستطيعُها غَيْرُهُ في سنواتٍ ودهرٍ طويلٍ ، ولكنَّ اللهَ بَارَكَ لهُ في عُمرِهِ .

ومن الأمورِ التي يُوجبُ اللهُ بها البركةَ ، ويُنزِلُ بها البركةَ على العبادِ أسبابٌ جعلَهَا اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- طريقًا لها ، فإذا حقَّقَ النَّاسُ هذه الأسبابَ وُضِعَتْ لهم البركةُ في أعمارِهِم وأوقاتِهم وأموالِهم وذراريهم .

ومن أعظمِ ذلك وأساسُ ذلك : تقوى اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- ، كما قالَ -سُبْحَانَهُ- : ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾ ، فأخبرَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أنَّه ينزلُ

البركاتِ ، ويُصيبُ بها عبادَهُ بتقواه -جَلَّ وَعَلَا- ، وأنَّه يفتحُ أبوابَ البركاتِ من السَّماءِ ، ويَعظمُ بذلك الخيرَ للعبادِ متى اتقوا اللهَ -جَلَّ وَعَلَا- .

ومفهومُ ذلك : أنَّهُم إذا تمرَّدُوا عليه وعصوهُ -سُبْحَانَهُ- ، وانتهكُوا حدودَهُ ، وغَشَوا محارمَهُ أنْ ذلكَ من أعظمِ الأسبابِ التي تُمحقُ بها البركةُ ، وإذا أُبتُلِيَ العبدُ بمعصيةِ اللهِ مُحِقَتِ البركةُ من عُمرِهِ ، ومُحِقَتْ من وقتِهِ ، ومُحِقَتْ من مالِهِ وأهلِهِ ، ولذلكَ قد تجدُ الرَّجُلَ عندَهُ الولدُ الواحدَ جعلَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- بهجةَ نفسِهِ ، وسرورَ قلبِهِ ، وقضاءَ حاجتِهِ ، فبَارَكَ اللهُ لهُ في ذلك الولدِ ، حتى إنَّه يُصيبُ منهُ ما يُصيبُ أصحابَ العشرةِ من الولدِ من أولادِهم .

ومنهم مَنْ يكونُ عندَهُ العشرةُ والعُشرونَ من الولدِ ينزعُ اللهُ بركتَهم ، حتى يتمنَّى أنْ لا ولدَ لهُ ، ولرُبَّمَا يكونونَ شُؤمًا عليهِ ، وشرًّا عليهِ في دينِهِ أو دنياهُ أو آخرتِهِ أو جميعِ ذلكَ -نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ وَالْعَافِيَةَ- .

فالبركةُ هي الأساسُ في الأشياءِ ، ولا ينبغي لإنسانٍ أنْ يعتقدَ البركةَ في شيءٍ إلا حيثُ دَلَّ الدَّليلُ عليهِ ، وقامَتِ الأَمَارَاتُ والدَّلائلُ من نُصُوصِ الشَّريعةِ على وجودِها فيهِ .

وقد بَيَّنَ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أنَّ البركةَ في كتابِهِ وكلامِهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- الذي جعلَ فيهِ للعبادِ خيرَ الدِّينِ والدُّنيا والآخرةِ ، فقالَ -سُبْحَانَهُ- : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ ﴾ فوصفَ كتابَهُ بأنَّه مباركٌ ، عظيمُ البركةِ من اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- ، ولذلك ما انتفعَ عَبْدٌ بشيءٍ أعظمَ ولا أجلَّ من كتابِ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- ، ولنْ تجدَ في هذه الدُّنيا أسعدَ من أهلِ القُرآنِ ، الذينَ جعلَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- القرآنَ بهجةَ قلوبِهم وطمأنينتَها وسلوتَها ، فسَلُوا بكتابِ اللهِ عن كُلِّ حُزْنٍ ، واتَّسَعَ لهم بكتابِ اللهِ كُلُّ ضيقٍ .

نسألُ اللهَ العظيمَ أنْ يجعلَنا منهم وفيهم ممن جعلَ اللهُ لهم القُرآنَ ربيعَ قلوبِهم ، ونورَ صدورِهم ، وجلاءَ أحزانِهم ، وذهابَ همومِهم وغمومِهم .

في هذا الحديثِ دليلٌ على أنَّه ينبغي للمُسلمِ أنْ يأخذَ بالأسبابِ التي تعينُهُ على أداءِ الطَّاعةِ على أتمِّ الوجوهِ وأكملِها ، ومن هنا جاءَتِ الأحاديثُ عن النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تدلُّ على حرصِهِ على تهيئةِ الأسبابِ للطَّاعاتِ ؛ حتى يؤديَهَا على أتمِّ الوجوهِ وأكملِها .

ومن أمثلةِ ذلك : أنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَمَّا حجَّ حجةَ الوداعِ وقفَ على بعيرِهِ في عرفاتٍ ، ثم ركبَ البعيرَ ، وقضى -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- الْمَناسكَ وهو على بعيرِهِ ، مع أنَّ الْمَشيَ أعظمُ أجرًا وأكثرُ ثوابًا في الطَّاعةِ ؛ لِمَا فيه من الْمَشقةِ ، ولِمَا فيه من العناءِ .

قالُوا : إنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- وقفَ على بعيرِهِ ؛ لأنَّ الوقوفَ على البعيرِ يقوّي النَّفسَ على العبادةِ والدُّعاءِ أكثرَ ، والْمَقصودُ في يومِ عرفةَ أنْ يكثرَ الإنسانُ من الدُّعاءِ وسؤالِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- ، وكذلك ركوبُهُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- البعيرَ حينما أفاضَ من عرفاتٍ إلى مزدلفةَ ، ونامَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- مبكرًا وصلَّى الْمَغربَ والعشاءَ جمعًا ، ثم نامَ واضطجعَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- إلى الفجرِ ؛ لأنَّه ذلك يقوّيه على الوقوفِ بالْمَشعرِ بعدَ صلاةِ الفجرِ ، ويقوّيه على رمي الجمارِ ، وأداءِ بقيةِ الْمَناسكِ والشَّعائرِ .

وهذا يدلُّ على أنَّ الْمُسلمَ ينبغي عليه أنْ يأخذَ بالأسبابِ التي تُعينُ على تحقيقِ الْمَقصودِ .

وقد يكونُ السَّببُ مخالفًا للعبادةِ ، فالسُّحُورُ وأكلةُ السَّحَرِ مخالفةٌ للصَّومِ ؛ لأنَّ الصَّوْمَ إمساكٌ والأكلُ مخالفٌ لها ، ولكنَّ هذه الْمُخالفةَ تُعينُ على الصَّوْمِ .

وينبغي أنْ يكونَ الإنسانُ وسطًا في تعاطي الأسبابِ ، فلا يبالغُ في ذلك ، ومن هنا قالَ بعضُ العلماءِ : إنَّه لا ينبغي له إذا تسحَّرَ أنْ يبالغَ في الأكلِ ؛ حتى لا تفوتَهُ الفضائلُ الْمُترتبةُ على الصَّوْمِ ، فإنَّه إذا بالغَ في الأكلِ في السَّحُورِ فاتَتِ الْمَعاني الْمُترتبةُ على الصَّوْمِ من كسرِ الشَّهوةِ وتضييقِ مجرى الشيَّطانِ من الإنسانِ .

ومن هنا أَمَرَ النَّبِيُّ -ﷺ- الشَّبابَ إذا لم يستطعِ الرَّجُلُ الباءَةَ أنْ يتزوَّجَ ، فإذا لم يستطعْ مؤونةَ النِّكاحِ والباءةِ أنْ يصومَ ، وقالَ : ((**فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلبَصَرِ ، وَأَحْصَنُ لِلفَرْجِ**)) .

قالَ بعضُ العلماءِ : إنَّ الرَّجُلَ قد يصومُ ، ولكنَّهُ لا تضعفُ شهوتُهُ ، ويبقى حالُهُ في الصَّوْمِ كحالِهِ في غيرِ الصَّوْمِ ؛ لأنَّه إذا صامَ بالغَ في سحورِهِ ، وأَكَلَ أَكْلَ الشَّرِهِ ، أو أكثرَ من النَّومِ ففاتَ الْمَقصودُ من الصَّوْمِ ، وحينئذٍ لا يضعفُهُ الصَّوْمُ ، ولا يكسرُ شهوتَهُ ، بخلافِ ما إذا كانَ وسطًا وائتسى بالنَّبِيِّ -ﷺ- .

وقد بَيَّنَ النَّبِيُّ -ﷺ- أنَّ الأُمَّةَ لا تزالُ بخيرٍ ما أخَّرَتِ السَّحُورَ ، وعجَّلَتِ الفِطْرَ ، وبَيَّنَ -عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- هذه الخيريةَ من جهةِ التَّقوّي على العبادةِ ، كما ذكرْنَا .